الاتفاق الإطاري يتيم... وألفُ أبٍ للبندقية

حمّور زيادة

أعلن قائد قوات الدعم السريع محمد حمدان دقلو (حميدتي) في التاسع من أكتوبر/ تشرين الأول الجاري، أنّ العملية السياسية لتسليم السلطة للمدنيين، المعروفة اختصاراً بـ«الاتفاق الإطاري»، هي سبب حرب السودان. وكان عبد الفتاح البرهان ومحمد حمدان دقلو (حميدتي) قد وقّعا وثيقة هذا الاتفاق في ديسمبر/ كانون الأول 2022. الأول عن القوات المسلّحة، والثاني عن «الدعم السريع»، كما وقّعتها عدة أحزاب وحركات مسلّحة.

وقتها وصف البرهان الاتفاق بأنّه «يصبّ في مصلحة السودانيين كلّهم، من دون إقصاء أحد»، وأكّد في حفل التوقيع أنّ واجب الجيش الالتزام بالمهنية العسكرية، والاعتراف بالقيادة السياسية للسياسيين، والإقرار بأنّ السلطة المدنية هي المسؤولة عن وضع غايات الأمن الوطني، وربطها بالسياستين الخارجية والعسكرية، ودعا القوى التي رفضت الاتفاق إلى توقيعه، إذ لا حجّر عليها، ثمّ ختم مؤكّداً: «من أجل هذا الوطن وإبراء جراحاته والحفاظ على وحدته واستقراره تم هذا التوافق». أمّا حميدتي فوصف الاتفاق بقوله إنّه «مخرج بلادنا من الأزمة الراهنة. وهو الأساس الوحيد للحلّ السياسي المنصف والعادل». بعد أقل من أربعة أشهر اندلعت الحرب بين الجيش و«الدعم السريع». رغم ذلك، جدّد البرهان، بعد أسبوع من الحرب، في حديث إعلامي، التزامه بـ«الإطاري» وتسليم السلطة للمدنيين. وأكّد حميدتي أيضاً نيّته دعوة المدنيين إلى استلام السلطة حال انتصاره... أسابيع، ثمّ تغيّرت المواقف.

صرّح مساعد قائد الجيش الفريق ياسر العطا في مايو/ أيّار 2023 بأنّ الاتفاق الإطاري أتى لخدمة قوى الحرّية والتغيير، ولإقصاء الآخرين والانفراد بالسلطة. بعده بأسبوعين، ذكر البرهان في رسالة إلى الأمين العام للأمم المتّحدة أنطونيو غويتريس أنّ المبعوث الشخصي لأخير أجبر حميدتي على توقيع «الإطاري» من دون رغبته، «كراعنا فوق رقبتنا». حسبما اقتبس البرهان في رسالته. اتفق المتقاتلان، في نهاية الأمر، أنّ «الإطاري»، الذي وقّعاه ومدحاه، كان سبب الحرب.

أمّا الحركة الإسلامية فرفضت الاتفاق مُبكّراً، واعلنت أنّ هدفه تفكيك الجيش السوداني، وأنّ من خلفه أميركا وبريطانيا والإمارات ومبعوث الأمين العام للأمم المتّحدة. وهدّد القيادي الإسلامي، اللواء أمن أنس عمر، بدفن الاتفاق ومن وقّعوه، وفي حديث آخر، وصفه بأنّه ضدّ الدين والشريعة، وبأنّه يهدف إلى تفكيك الجيش والشرطة والمخابرات، ويهدم الأخلاق، ويروّج العلمانية، وهو رأي تبنّته جماعات أكبر من الإسلاميين في تحالف عرف بـ«التيّار الإسلامي العريض».

في نهاية مارس/ آذار، كرّر القيادي الناجي عبد الله عدة تهديدات لـ«الإطاري» ومن وقّعوه. والناجي هو أحد قيادات مجموعة الدبابين الإسلامية المسلّحة، التي اعتمد عليها نظام عمر البشير لتقاتل مع الجيش في حرب الجنوب، قبل أن ينشئ مليشيا «الجنجويد» (قوات الدعم السريع لاحقاً) لتقاتل معه في حروب دارفور. ويتحالف الجيش اليوم مع مليشيات الحركة الإسلامية من «دبابين» ولواء البراء بن مالك، وغيرهما، ومع الحركات الدارفورية (المشتركة) لقتال الدعم السريع.

في آخر خطابات الناجي عبد الله هاجم «الإطاري» والبرهان وحميدتي و«الحرّية والتغيير» ومبعوث الأمم المتّحدة، وهدّدهم بأنّ الأفضل لهم «أن يبلّوه ويشربوه اليوم قبل ألّا يجدوا وقتاً لذلك». بعد 15 يوماً من التهديد، اندلعت الحرب بين الجيش و«الدعم السريع». وكانت الحركة الإسلامية هناك؛ وبحسب فيديو بثّه تلفزيون العربي، تسلّم عناصر من لواء البراء بن مالك أسلحتهم من الجيش صبيحة يوم 15 إبريل/ نيسان، في الساعات الأولى للحرب. كان الجيش أول من انقلب على «الإطاري» وكان له التهم. ثمّ بعد 18 شهراً من الصمت لحقت به قوات الدعم السريع. أمّا الحركة الإسلامية فلم يتغيّر موقفها قط.

الوزيرة الألمانية الخضراء أيقونة التطرّف

محمود الريماوي

لم تحمل تصريحات وزيرة الخارجية الألمانية أنالينا بيربوك أخيراً مفاجأة كبيرة، إذ دأبت الوزيرة على إطلاق تصريحات مماثلة تتعلّق بدولة الاحتلال الإسرائيلي، تتركّز في أنّ هذه الدولة تستحقّ الدعم أكثر من ضحاياها، وأنّ مواقف مرتبكة للحديث بنبرة إنسانية. وليست تصريحاتها أمام البرلمان الألماني (البوندستاغ) بعيدةً من سياسة حكومة المستشار أولاف شولتز، التي تنحو المنحى نفسه، وفحواها أنّ الدولة العبرية المقامة في أرض فلسطين تمثّل ضحايا الهولوكوست، بما يرتّب دعماً تلقائياً ودائماً من ألمانيا لهذه الدولة، مهما ارتكبت بحقّ غيرها. ولا يقتصر الدعم الشامل ومتعدّد الأوجه على التعويضات المالية، إذ يشمل تبنّي الرواية الإسرائيلية أنّ ضحايا الصهيونية، والمعترضين عليها، إرهابيون يجب استئصالهم من أرض آبائهم وأجدادهم، متى فكّروا (أو حاولوا) في مقاومة من يحتلّ وطنهم. وبهذا التفكير السياسي (وما يتبعه من سلوك)، يستشعر الضمير الألماني الراحة، راحة التكفيرعن الإثم.

وواقع الحال أنّ هذه السياسة قديمة في بلاد الرايخ، ومنذ عهد أول مستشار لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، كونراد أديناور، حين كانت ألمانيا (الغربية حينذاك) في قلب الكتلة الغربية المناوئة للاتحاد السوفييتي في حقبة الحرب الباردة، وحيث كان دعم الدولة العبرية جزءاً ثابتاً من سياسة هذه الكتلة، التي ضمّت بريطانيا وفرنسا ودولاً أخرى بقيادة الولايات المتّحدة. ولم يكن منتظراً من حكومة المستشار الاشتراكي شولتز تغيير هذه السياسة، غير أنّ الظرف السياسي الحالي كان يتطلّب إبداء بعض الحساسية، والسعي إلى بعض التوازن وتهدئة الحماسة المفرطة تجاه تلّ أبيب. فقد وقعت حادثة السابع من أكتوبر/ 2023 في مستوطنات إسرائيلية مجاورة لقطاع غزّة المحاصر (انسحبت منه إسرائيل في 2005)، وأبقت على حصاره برّاً وبحراً وجوّاً)، وفي أجواء من الانسداد السياسي تبتعد معه فرص استعادة الحقوق الفلسطينية. وقد رأت دولة الاحتلال بقيادة أقصى اليمين في هذا التطوّر فرصةً ليس للردّ على هذا الاختراق، بل للقيام بحرب إبادة ضدّ الراحلة، راحة التكفيرعن الإثم.

وما يتخلّلها من تطهير عرقي للمدنيين. وقد سُجّل على سبيل المثال اختفاء أكثر من ألف عائلة كاملة من السجلّ المدني (العائلة هنا تضمّ أجداداً وآباءً وزوجاتٍ وأبناءً وأحفاداً)، من جملة أكثر من 42 ألف ضحية معظمهم من المدنيين. لم تتحرّك محكمة العدل الدولية ولا المحكمة الجنائية الدولية من دون سبب، ولم تُدمَّر مقارّ ومخازن وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا) التابعة للأمم المتحدة سهواً، بل في إطار حملة تدميرية ممنهجة وصلت إلى اتّهام هذه المنظمة الأممية بالإرهاب، وقتل أكثر من 100 من العاملين فيها. هذه التطوّرات المريعة لم تدفع الوزيرة الشابة بيربوك (44 عاماً) إلى إعادة التفكير والتوقّف في ومواجهة هول هذه الكارثة، إذ واظبت على زيارة تلّ أبيب، وإبداء دعم حكومة بلادها لحكومة بنيامين نتنياهو، القائمة بحرب الإبادة، مع حديث مراوغ عن «ضرورة إيلاء الوضع الإنساني الاهتمام»، ومن غير أيّ إدانة لقتل الآلاف من الأطفال وربّات البيوت، وتدمير المستشفيات والمدارس والجامعات ودور العبادة (منها الكنائس الأربع في القطاع).

وبمناسبة مضي عام على اختراق «7 أكتوبر»، وانطلاق حرب الإبادة، رأت الوزيرة الخضراء (تمثّل حزب الخُضر) أنّ استهداف المدنيين كان متوقّعاً ومفهوماً لأنّ «الإرهابيين يختبئون في المرافق المدنية بين المدنيين»، ما يُفسّر قتل آلاف منهم، وتدمير آلاف البيوت والخيام على رؤوس أصحابها. وقد صادف أن تزامنت تصريحات الوزيرة مع عودة قوات الاحتلال إلى شمال قطاع غزّة، الذي سبق لها أن دمّرته منذ أكتوبر (2023)، فوفقاً لخطّة جنرالات متقاعدين اعتمدتها حكومة نتنياهو، يجب شنّ مزيد من الهجمات على أنقاض البيوت، وحرمان من بقي من السكّان من الماء والغذاء، وعلى أمل أن يكون بينهم إرهابيون. وإذا لم يكن هؤلاء بينهم، فإنّ التخلّص من الفلسطينيين (400 ألف) هدف عسكري يستحقّ إنجازه. في هذا الوقت، كانت الوزيرة الألمانية تخاطب بملايين سوداء برلمانيّي بلادها. وقليلاً ما يرتدي الخُضر ثياباً سوداء، غير أنّه من المعروف من يحرص بين الناشطين السياسيين والاجتماعيين على ارتداء قمصان وسراويل سوداء. من المفارقات الصارخة أنّ رئيس كتلة حزب البديل من أجل ألمانيا في البوندستاغ، تينو كروبالا، انتقد بشدّة الدعم الذي تقدّمه حكومة المستشار شولتز لإسرائيل من أسلحة وذخائر. وقال، في كلمة ألقاها، إنّ شحنات الأسلحة التي تقدّمها برلين لإسرائيل تعني قبولها جميع الخسائر المدنية من الجانبين، وهو ما يجعل هذه الحكومة (من ضمنها الوزيرة بيربوك) تقف في يمين الحزب الذي يوصف بأنّه يمثّل اليمين المُتطرّف، وهو ما يكشف المنحدر الذي انزلق إليه حزب الخُضر الألماني في التأييد الصريح لإرهاب الدولة الذي تمارسه تلّ أبيب في حقّ أكثر من مليوني غزّي. وكان هذا الحزب قد نشأ في مطلع تسعينيات القرن في بيئة اجتماعية وفكرية تناصر السلام وتنبذ العنف السياسي، وتدعو إلى إزالة الأسلحة والمنشآت النووية، ما جعله يتموضع في يسار الوسط، لكنّ هذا الحزب الألماني، وعلى يد رئيسته الحالية بيربوك، بات يتقوقع على كلّ حزب وتيّار فاشي في أوروبا بالدعم المُشين لقتل الأطفال والنساء.

هذا مع الإقرار أنّ ما تفوهت به رئيسة الدبلوماسية الألمانية لا يُخرج من السياسة العامّة لبلادها، وقد أثبتت هذه السياسة تجاه الملفّ الشرق الأوسطي أفقارها إلى النزاهة والبعد الأخلاقي، إذ اقترنت عملية التخلّص من الإرث النازي الثقيل بارتكاب خطيئة أخرى تجاه الضحايا الفلسطينيين، وكانّ الخطأ، وفق هذه السياسة، حين يُضاف إليه خطأ آخر، تكون نتيجته واحداً صحيح، بينما الحصيلة هي خطأن متتابعان جسيمان.

(كاتب من الأردن)

> لا تخرج آخر تصريحات أنالينا بيربوك من السياسة العامّة للألمانيا التي تفتقر إلى النزاهة والبعد الأخلاقي في قضايا الشرق الأوسط

كاريكاتير — سعد المهندي

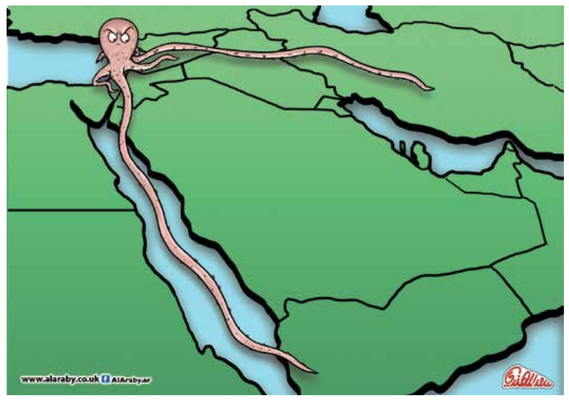

عن نظام جعل الشعب يتقبّل الاحتلال الصهيوني

عمّار دِيّوب

قلب العروبة مريضٌ هذه الأيام. لم تعد دمشقُ وسوريةُ بشكلٍ عام، موطنَ القومية التي سادتْ منذ أفول الدولة العثمانية، ودولةَ بداية السبعينيّات. هناك من يُشكّك في هذه الفكرة، وهذا تفكيرٌ غير سليم. بدأ انحدار هذه الفكرة مع تأسيس حافظ الأسد دولته، فأصبحتْ دولةً ديكتاتوريةً، وفكّك الشعب هياكلَ أهليةً، وبدأت الكراهيةُ الشعبيةُ للقومية ولفلسطين وللاشتراكية. مع تقدّم الزمن، وبحلول عام 2011، أصبح السوريون يسعون إلى التخلّص من النظام الذي أذلّهم وأفقرهم باسم القومية وفلسطين والاشتراكية، وقد تبنّتْ هذه الكراهيةَ قوىً سياسيةٌ متعدّدةٌ، منذ عام 2011، تأسّست سوريةُ الجديدة. ومع طول أمد الثورة وتحوّلاتها، والتدخّل الخارجي، بدأ السوريون يتقتّلون أيّ قوّةٍ احتلاليةٍ للخلاص من النظام، ومن أوضاعهم الكارثية. لم تعد قضيتُهم مرتبطةً فقط بنظامٍ شموليٍّ يمارس النهب والفساد، بعدَ أن أصبح يعتمد على إيران ومليشياتها الطائفية وروسيا لدحر الشعب ومشروعه في الانتقال الديمقراطي. إذاً، منذ السبعينيّات، أبعدَ الشعبُ عن السياسة، ولم يعد يطيقُها. دفع دخول إيران ومليشياتٍ تابعةٍ لها نحو قابليةٍ للاستعمار لدى الشعب، ونحو الاستعانة بالخارج، وكان هذا صادماً لكثيرين ومنهم كاتب هذه السطور.

نتنياهو وحكومته يهدّدون بالإبادة والحرب المستمرّة لتغيير الشرق الأوسط بأكمله، وسورية مشمولةٌ بذلك. أصبحت الدبّابات الصهيونية جاهزةً عند الحدود مع الجولان المحتلّ لدخول لبنان أولاً، ثمّ سورية لاحقاً. تكثّفت العمليات الجوّية داخل سورية ضدّ مواقع إيرانيةٍ أو تابعةٍ لحزب الله، وفي لبنان، تُدمّر البنية التحتية ومدن الجنوب، وينال القصف من بيروت وباقي المدن. أطلق الرئيس التركي أردوغان تحذيراً من إمكانية احتلال دمشق سورية، ما يُشكّل خطراً عند الحدود التركية. هناك وقائع وتحليلات عديدة تُؤكّد أنّ أميركا تدعم خيار الدولة الصهيونية في تغيير الشرق الأوسط والسيطرة الكاملة عليه، ما قد يُؤدّي إلى تلاقٍ مع الإدارة الذاتية الكردية في شرق سورية، وهو ما يثير مخاوفَ الرئيس التركي، المشكلةُ أنّ السوريين، لا سيّما الخارجين عن سيطرة النظام أو في المنافي، ورغم معرفتهم هشاشة نظامهم، غير قادرين على تغييره أو على تجاوز شعور الهزيمة الذي يعيشونه، ما أدّى إلى فقدانهم الإرادة. هناك «أغلبية» تتقبّل أيّ طريقٍ للتغيير، حتّى لو كان عبر الاحتلال الصهيوني. وبسبب انحدار الوعي السياسي، والغضب الشديد من النظام، غاب الوعيُ بحقيقة هذا الاحتلال دولةً استعماريةً، وظيفتها اجتثاث أيّ بوادر نهوض عربي، مهما كانت؛ الثورات العربية وعملية طوفان الأقصى...

النظامُ وروسيا وإيران، وبسبب احتمال أن تستغلّ هيئةُ تحرير الشام، أو الفصائل الأخرى، إمكانيةَ دخول دولة الاحتلال سورية، قاموا بتحريك قوّاتهم نحو إدلب بدلاً من التركيز على الجولان. في هذا السياق، بدأت روسيا بقصف مواقع عسكرية تابعة لهيئة تحرير الشام عدّة أيام. بذلك، يُعلن النظام بوضوح أنّه لا يمانع دخول القوات الصهيونية إلى القنيطرة طالما أنّ ذلك يضمن بقاءه في السلطة، وربّما يأمل في مساعدتها للتخلّص من الفصائل. ويبدو أنّ روسيا لا تعارض ذلك، وقد تكون هناك اتفاقاتٌ كاملةٌ مع الدولة الصهيونية، وهو ما يُعزّز الشقاق بينها وبين إيران.

هناك من يرى أنّ النظام قد غادر محور الممانعة، وبدأ يفكّ شراكته مع حزب الله وإيران، بينما تحاول تركيا إنقاذه بالطرق كلّها، إلّا أنّ الحقيقة أنّه لم يُغادر بشكلٍ كامل، وتركيا لا تعمل على إنقاذه بشكلٍ كافٍ. لا تزال إيران تقاتل معه في الشمال وتستهدف مواقع للفصائل، وهي متداخلةٌ بشكلٍ كبير مع النظام، وتستطيع إيلامه بشدّة، لكنّه يبقى مصدر شرعيتها في سورية. ومع ذلك، تتيح براغماتية النظام له التلوّن كثيراً، يسعى النظام إلى الانفكاك من الضغط الإيراني، إذ تطالبه إيران بمستحقّاتها المالية، ومليشياتها موجودة ضمنَ الفرقة الرابعة وأجهزة الاستخبارات والفرق العسكرية في مختلف المدن السورية. وقد أصدر ماهر الأسد تعليماتٍ لفرقته بالابتعاد عن المليشيات الإيرانية، وهناك تقارير تفيد بأنّ فرقته صادرت مستودعاتٍ أسلحةً لحزب الله في الزبداني وألستْ زينب. هذه استجاباتٌ دقيقةٌ للضغط الصهيوني بالابتعاد الكامل عن إيران، وهي مطالبُ أميركيةٌ عربيةٌ، خاصّةً بعد انفتاحه على الدول العربية. لكن الأصل يبقى: هل ستتقلبل إيران ذلك بسهولة؟ ... يبدو هذا مستحيلاً، ولذلك ما زالت المعركة في سورية في بداياتها، ومن الخطأ القول إنّها لن تحدث. فالقصف لم يتوقّف، وتكثّف أخيراً؛ دولة الاحتلال تحشد، وروسيا تقصف جواً في إدلب، بينما قوّاتٌ تابعةٌ لإيران تقصف بالمدفعية، والرئيس التركي يرفض دخول جيش الاحتلال إلى دمشق وسورية. المقبولية الشعبية للاحتلال الصهيوني، والكلام عن المناطق تحت سيطرة النظام، تعكسُ ردّات فعل وغضباً على ممارسات النظام، وليست وعياً جادّاً. هذه المشاعرُ ستتخفّى في اليوم التالي لسقوط النظام أو تغييره، لكنّها ستظلّ قائمةً طالما استمرّ النظام في السلطة. يخالف كاتب هذه السطور الآراء السائدة لدى عديد من الأوساط الشعبية. إنّ ممارسات دولة الاحتلال في فلسطين لن تختلف في احتلالها لسورية (إن حدث) عمّا تفعله في غزّة والضفة الغربية ولبنان، وستبنّى أساليب الدمار نفسها التي شهدناها في حواضر سورية، بل قد تتجاوز ما فعله النظام سابقاً. رغم هذه الملاحظة، فإنّ هدف دولة الاحتلال في سورية هو التخلّص من الوجود الإيراني والمليشيات المسلّحة التابعة لها، وستتابعُ بالتأكيد قيادات حزب الله الهاربة إلى سورية، ولن تتراجع عن احتلال الجولان. ومع ذلك، فإنّ تعقيد المشهد السوري ووجود أميركا وروسيا وتركيا وإيران يزيد صعوبة احتلالها سورية. إنّ العلاقة المتينة بين عائلة الأسد وإيران لن تتبدّد بسهولة، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ النظام لم يعد يحظى بأيّ قبول في سورية، حتّى من قِبَل مؤيّديه، وهو ما قد يدفع حكومة نتنياهو إلى التفكير في تغيير النظام الذي حصل على دعم غير مباشر منها منذ 2011. هل يمكن لدولة الاحتلال أن تساهم مع روسيا وأميركا في تشكيل نظام جديد موالٍ للدول الكبرى، يكون ضعيفاً، ويقيم سلاماً مع دولة الاحتلال؟ ... هذا احتمالٌ يُعتبر ضمن سيناريوهاتٍ عديدةٍ متعلقةٍ بمستقبل الوضع السوري.

التحليل أعلاه ينطلق من أنّ حكومة الدولة الصهيونية لن تقبل بوجود أيّ تهديد محتمل لها في المنطقة، كما فعلت «حماس» أو حزب الله. لن تقبل بالوجود الإيراني في المنطقة الذي يدعم هذه المقاومة، بل إنّها، وبعد الاتفاقات الإبراهيمية، وفي ظلّ الصمت العربي حيال إبادة غزّة والضفة ولبنان، تجد نفسها في موقع القوّة الأكبر والمقرّرة لشؤون المنطقة. هناك دعمٌ غربيٌّ كبيرٌ لدورها الجديد هذا، وبالتالي، في الوقت الذي تسعى فيه إلى الهيمنة، هناك مقبوليةٌ لفعلها هذا في العديد من الأوساط السورية والعربية، بهدف الخلاص من النظام وإيران، والانتقال إلى واقع سوري جديد. لكنّ هذا لن يتحقّق، وسنتنقّل من احتلالٍ إلى آخر.

(كاتب سوري)

> ممارسات دولة الاحتلال في فلسطين لن تختلف في احتلالها لسورية (إن حدث) عمّا تفعله في غزّة والضفة الغربية ولبنان

هناك من يقتنع أنّ طريقَ التغيير، حتّى لو كان عبر الاحتلال الصهيوني (Getty)

وحل السنوار شهيداً

جيرار ديب

تداولت وسائل إعلام إسرائيلية صورةً لجثّة رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، يحيى السنوار، بعد استشهاده في اشتباكات داخل مبنى في تلّ السلطان في رفح. وقال بيان مشترك للجيش والشاباك إنّه «خلال نشاط لقوات الجيش الإسرائيلي في قطاع غزّة، قُضي على ثلاثة مُخرّبين»، منهم زعيم «حماس» يحيى السنوار.

وقد جاء اغتيال السنوار على الطريقة التي اختارها، بأن يكون شهيداً لأجل فلسطين. هو الذي قضى أعواماً في سجون الاحتلال بعدما حكمت عليه المحكمة العسكرية الإسرائيلية باربعة أحكام بالسجن مدى الحياة، لتُطلَق سراحُه بعد 22 عاماً من 1027 أسيراً فلسطينياً آخرين في عملية تبادل أسرى عام 2011، في مقابل إطلاق سراح الجندي الإسرائيلي جلعاد شاليط. ليس السجن، ولا عذابات الإجرام الإسرائيلي، إرادة السنوار في الدفاع عن القضيّة التي عاش ومات لأجلها، وهي تحرير فلسطين. لهذا، خطّط وعمل لتنفيذ الهجوم الذي اعتبره كثيرون صفعةً قويّةً على وجه إسرائيل. كانت عملية طوفان الأقصى، التي قتلت أكثر من 1200 إسرائيلي، ووقع عشرات الأسرى في قبضة «حماس» التي استخدمتهم ورقةَ ضغطٍ في وجه حكومة بنيامين نتنياهو.

في حسابات إسرائيل أنّ قتل القائد السنوار سيحقّق لها انتصاراً ميدانياً تستطيع استثماره سياسياً في الداخل، ولا سيّما أنّ نتنياهو يسعى إلى تحقيق الإنجازات في حربه في المنطقة ويعتقد بعضهم، وفي مقدّمتهم زعيم المعارضة الإسرائيلية يائير لبيد، أنّه بإمكانه الاستفادة من عملية الاستهداف هذه في الضغط أكثر على «حماس» من أجل إطلاق فوري للأسرى لديها. أكثر من دفع مرّ على حرب الجيش الإسرائيلي الهمجية على قطاع غزّة، لم يستطع خلالها تحقيق أهداف وضعها منذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأول (2023)، ولم يُحقّق ما تمنّاه بتفكيك البنية التحتية للحركة، حتّى حين اعتبر أنّ اغتيال رئيس الحركة في طهران، الشهيد إسماعيل هنيّة، سيقضي على عزيمة المقاومين وسيدفعهم لإلقاء السلاح.

يأمل بعض الداخل الإسرائيلي بأن يشكّل اغتيال السنوار فرصةً جديدةً لإنهاء الحرب في غزّة، وأن يعطي فرصةً الانتصار لإسرائيل، ويدفع الحركة إلى إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين. لكنّ حسابات الحقل قد لا تتطابق مع حسابات البيدر، فالغريب أنّ الإسرائيلي الذي استوطن (واحتلّ) فلسطين منذ 67 عاماً (على الأقلّ) لم يتعلّم أنّ روح تموت ولا تكلّ في الدفاع عن أرضه، وأنّ «طوفان الأقصى» لن يكون نهاية الطريق، بل خطوة في مسار الألف ميل نحو التحرّر، وأنّ السنوار هو جزء من تاريخ الفلسطيني المناضل والثائر لتحقيق النصر وتحرير الأرض، إن ماتت السنوار أو عاش، فإنّ «حماس» ليست حركة مارقة ولا عابرةً في تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، بل هي عقيدة تُتناقل بين الأجيال، تهدف إلى تحرير الأرض من هيمنة الاستعمار. هذا يُؤكّد أنّ «حماس» ستعيد ترتيب هيكليّتها عبر تعيين البديل، وستكمل المسار في الدفاع عن القضية التي من أجلها تأسّست، ولأجلها يُستشهد مناصروها.

باستشهاد السنوار تكون الحرب في غزّة قد دخلت مرحلةً جديدةً وحسّاسةً في حدّ حيّ، ولكنّها لن تشكّل صدمةً للحركة لا يمكن تخطيها. السنوار قُتل في جبهة المواجهة، وليس بطريقة الاستهداف الجوّي الناتج عن الجهد الاستخباراتي، هذا ما يُؤكّد أنّ الحركة في جهوزيةٍ لأيّ سيناريو منتظر، حتّى لو كان على مستوى اغتيال القادة. الهيكلية التنظيمية التي تتشكّل منها حركة حماس تدفع بها نحو إنتاج قادتها بطريقة آلية، ولا تحتاج إلى جهد كبير في الموضوع، كما أنّ وجود السنوار في جبهات القتال يضفي قوّةً إضافيةً إليها، تُؤكّد أنّ الشهادة في سبيل القضية هي مُقدّسة عند الجميع، بل خطوة في صلب الأولويات. هذا ما تقف عنده الهرمية التقليدية في التنظيمات أو الأحزاب التي تعتبر أنّ موت زعيمها قد يُشكّل شلّلاً جدّياً لها، بعوق تنظيمها.

أخذت عملية قتل السنوار النشوة الإسرائيلية إلى حين 1967، عندما رفع المسؤولون الإسرائيليون كأس النصر يومها، بعدما اجتاح الجيش الإسرائيلي أربع دول عربية؛ مصر ولبنان وسورية والأردن. نشوة الانتصر في ذلك الزمان أخذت مصر إلى اتفاق سلام، من دون أن تأخذ الشعب الفلسطيني رهينةً لهذا الانتصار، فسار الفلسطينيّ على طريق الانتفاضات التي بدأها عام 1987، في دلالة على رفض مُطلق للاستلام أمام آلة الحرب والقتل الإسرائيلية.

لن تموت روح المقاومة، حتّى مع استشهاد السنوار، فهذا إن دلّ على شيء، فعلى أنّ التضحيات لا تحقّق النصر لإسرائيل، ولن تستطيع فرملة الاندفاعة لمحور وضع على عاتقه الدفاع عن حقّ الشعب الفلسطيني لكن ما يجب التوقّف عنده، أنّ سقوط السنوار شهيداً، سيكون استكمالاً لمشروع المقاومة في سبيل تحرير الأرض.

(كاتب لبناني)

> وجود السنوار في جبهات القتال يُؤكّد أنّ الشهادة في سبيل القضية هي مُقدّسة عند الجميع

هل توقف إسرائيل حربها على غزة؟

غازي دحمان

باغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس يحيى السنوار، هل تُراجع حكومة اليمين المُتطرّف الإسرائيلي حربها في غزّة، ولا سيّما أنّ هذه الحكومة وضعتْ في قائمة أهدافها، منذ إعلانها الحرب، قتلَ السنوار، الذي تتهمه بالتخطيط لعملية طوفان الأقصى والإشراف عليها؟ فباستثناء العثور على ما تبقّى من أسرى إسرائيليين أحياء في غزّة، استنفدت إسرائيل أهدافها في الحرب على القطاع، إلى درجة أنّها تضرب من أجل التدمير وحسب، وما بقي من أهداف، مثل القضاء على «حماس» نهائياً، فهي تبدو غير واقعية بسبب تجذّر الحركة في القطاع وانتشارها الواسع في داخل البنية المجتمعية الغزّية. ظلّ هدف قتل السنوار المُحرّك الأساس للحرب الإسرائيلية، وتحت هذا الغطاء استطاع نتنياهو التصدّي للضغط الداخلية والخارجية، فانتهاء الحرب مع بقاء السنوار حيّاً (في نظر قادة إسرائيل) كان سيجعل الحرب بلا معنى، واستمرارها في قيادة «حماس»، سيجعلها بعيد ترميم قوّة الحركة في وقت لن يطول، بفضل ما يمتلكه من قوّة الشخصية، ومواصفات القائد السياسي والميداني الحازم، وبفضل ما يملكه من شرعية بعد قيادته الحركة خلال الحرب.

هذا المشهد أدركته إسرائيل جيّداً، ولم يكن هدف تصفية السنوار وإزاحته من قيادة «حماس» مُجرّد إرضاء الشعور بالانتقام من السنوار لقيادته عملية طوفان الأقصى، التي أذلّت جيش إسرائيل وأجهزتها الأمنية، بل لأنّها اعتبرته محور حركة المقاومة في غزّة وفلسطين، ومن ثمّ فإنّ إزاحته قد تقضي على الدينامية التي شكّلها حضوره وقيادته للحركة، وإطلاق دينامياتٍ جديدة من شأنها تغيير المعادلة بشكل كبير في غزّة، وعلى مستوى القضية الفلسطينية كلّها. في تقديرات إسرائيل أنّ إزاحة السنوار من على الساحة إضعاف حركة حماس إلى حدّ بعيد، ولا سيّما أنّ الحركة باتت تفتقد شخصيةً قياديةً بحجم السنوار، وهذا يشبه إلى حدّ بعيد تصوّرات إسرائيل بعد اغتيال أمين عام حزب الله حسن نصر الله، مع فارق أنّ السنوار يقود «حماس» متفرّداً، وهيكلية الحركة بسيطة وليست معقّدة مثل نظيرتها عند الحزب، كما أنّ التأثير الخارجي أضعف عند الحركة من تلك الموجودة عند الحزب، فلا يستطيع الحرس الثوري الإيراني مثلاً التدخّل بالميات عمل الحركة ولا بسياساتها، كما يفعل مع حزب الله.

بناء على ذلك، السؤال الملحّ اليوم: هل ستبحث نتنياهو قرار وقف الحرب في غزّة، بعد إنجازه هدف اغتيال السنوار؟ ... هنا يمكن الحديث عن سيناريوهين: الأول، إعلان إسرائيل قريباً انتهاء عمليّاتها العسكرية في غزّة، لا سيّما أنّها أخيراً بدأت بترسيم الشكل النهائي لمستقبل القطاع، من خلال إفراغ شماله وتحويله منطقة عازلة والسيطرة على المعابر في رفح، ومن ثمّ، إذا لم تستجدّ أيّ مُستجدّات ميدانية خطيرة تكون إسرائيل قد حقّقت أهدافها، أو على الأقل تستطيع حكومة اليمين الإسرائيلي تقديم صورة نصر للداخل والخارج الإسرائيليين. وتدعم هذا السيناريو حاجة إسرائيل إلى الموارد العسكرية في جبهات الشمال، المتوقّع أن تشهد تطوّرات دراماتيكية في المرحلة المقبلة، وتتطلّب جهوداً عسكرية كبيرة.

السيناريو الثاني، واستمرار الحرب، وذلك لتصوّر إسرائيل أنّ لديها فرصةً لسحق المقاومة الفلسطينية نهائياً، ووفق هذا التصوّر ستكون الأيام المقبلة أشدّ ضراوةً، انطلاقاً من الاعتقاد بأنّ الحركة في حالة من الصمت والفوضى والانكشاف، واستمرار الحرب في غزّة لا يؤثّر بشكل كبير في جبهات الشمال، إذ تستطيع إسرائيل إدارة الحرب في جبهتين، كما ثبت خلال الأسابيع الماضية، ومن ثمّ فإنّه لا داعي لإنهاء الحرب والطرف الآخر يمرّ بأقصى مراحل ضعفه.

رغم ترجيح السيناريو الأول، لاعتبارات داخلية وخارجية وميدانية، على اعتبار أن نتنياهو المستغرق في حرب لبنان، يحتاج إلى تخفيف الضغط عليه، ويرغب في إيصال رسالة للعالم أنّه يميل للتهدئة والسلام، ومراعاة الاعتبارات الدولية، فإنّ إنهاء الحرب على غزّة ليس مضموناً ضماناً كبيراً، وقد يناور نتنياهو عبر تخفيف كثافة ضرباته في المرحلة المقبلة من دون الالتزام بوقفٍ نهائيّ للنار، على اعتبار أنّ إسرائيل وصلت إلى مرحلة حسمت من الحرب، وهي إعادة تصميم الواقع في غزّة حسب خطّتها.

(كاتب فلسطيني في فرنسا)

احتلال دمشق

بشير البكر

لفت الانتباهَ تحذيرُ الرئيس التركي رجب طيّب أردوغان، في 12 من أكتوبر/ تشرين الأول الجاري، من احتلال إسرائيل دمشق، نظراً إلى أنّه الأول على هذه الدرجة من الخطورة يصدر من رئيس دولة كبرى معنية مباشرةً بالشأن السوري، وبما يتّصل به إقليمياً، وضاعف من أهمّيته أنّ تركيا لعبت دوراً أساسياً في التطوّرات السورية منذ انطلاق الثورة السورية في مارس/آذار 2010، ولا تزال صاحبةَ قرارٍ وازنٍ فيما يتعلّق بحاضر البلد الجار ومستقبله، فهي تستقبل في أراضيها قرابةَ ثلاثة ملايين لاجئ سوري، ولها حضور عسكري وأمني، وتدعم وتساند الفصائل العسكرية المنتشرة في شمال غربي سورية، يزيد تعداد مقاتليها على مائة ألف، بالإضافة إلى ما يشكّله لها من تحدّياتٍ وجودُ «قوات سوريا الديموقراطية» (قسد)، التي تسيطر على ثلاث محافظات: الرّقّة، ودير الزور، والحسكة، بدعم سياسي وعسكري أميركي، من خلال نشر أكثر من ألفي جندي في قواعد عدّة لاجء. كلام أردوغان في معرض الردّ غير المباشر على تصريح وَرَدَ على لسان الوزير الإسرائيلي السابق، زعيم حزب «إسرائيل بيتنا» أفيغدور ليبرمان، الذي دعا إلى توجيه ضربة استباقية لنظام بشّار الأسد باحتلال الجيش الإسرائيلي الجزء السوري من جبل الشيخ، عند الجولان المحتلّ، منعاً لأيّ هجوم على إسرائيل، وعقاباً للأسد على «جعل سورية قاعدةً لوجستيةً لأعداء تلّ أبيب»، على حدّ زعمه. واعتبر الرئيس التركي أنّ «احتلال دمشق» يمثّل تهديداً إقليمياً خطيراً، و«سيمزّق خريطة سورية بالكامل». وما يهم أنقرة مباشرةً أنّ ذلك يعني وصول الجنود الإسرائيليين إلى حدود تركيا، وهو أمر له تداعيات خطيرة على الأمن التركي.

لم يقتصر تحذير الرئيس التركي على خطورة نيّات إسرائيل، بل بدت نبرته نقديةً بخصوص النظام السوري وروسيا وإيران، مشدّداً على أنّ على هؤلاء اتخاذ إجراءات أكثر فاعلية تجاه وضع التهديد الكبير لسلامة الأراضي السورية. وفي هذا إشارة واضحة إلى عدم وجود قو

الحرب والسلام في مصر بين الاحتلال والاستقلال

أنور الهواري

لم يحارب المصريون على مدى نصف قرن من حرب السودان (1898)، حتّى حرب فلسطين 1948. قرار الحرب في السودان كان من الناحية الفعلية بريطانياً محضاً. كانت مصر تحت الاحتلال الإنكليزي، ولم تكن تملك من أمرها قليلاً أو كثيراً، وكانت الإمبراطورية البريطانية في عنفوانها، والخديوية المصرية في أضعف حالاتها. كذلك، كان قرار الحرب في فلسطين بإيحاء من الإدارة البريطانية التي كانت صاحبة السلطان الفعلي في مصر، ولم تكن لمصر مصلحة في قرار الحرب في السودان، بل كان القرار في صالح الاستعمار البريطاني المتنافس مع غيره من مراكز الاستعمار الأوروبي في أفريقيا، وجاء قرار الحرب في فلسطين بغتةً على غير استعداد عملي من الجيش المصري. رغبت بريطانيا (وقد قرّرت الانسحاب من فلسطين) في إقامة توازن بين العرب واليهود. لم تكن أيٌّ من الحربين إضافةً إلى تاريخ العسكرية المصرية، ولا إلى مكانة مصر في الإقليم. العكس صحيح؛ الحرب في السودان وتوريط المصريين ليكونوا أدواتٍ في يد الحكم الاستعماري للسودان أوجدت حزازات ومرارات كامنة في نفوس الأشقّاء في السودان فشل الزمن في محوها. كان الإنكليز يكلّفون المصريين بالمهام المباشرة في الاحتكاك مع السودانيين ويتوارون هم في الخلف، فكانت كراهية السوداني المظلوم تنصبّ على المصري، الذي يبدو في الواجهة ظالماً، وليس على الظالم الحقيقي الذي يرقد خلف الستار.

كذلك كانت حرب فلسطين 1948، كشفت خواء الدولة المصرية وفساد الإدارة وتحلّل النظام الملكي واهتراء النظام شبه الليبرالي شبه الديمقراطي، الذي أعقب ثورة 1919، واستمر ثلاثة عقود في ثياب الاستقلال، بينما الاحتلال واقع فعلي في ثوب الديمقراطية الليبرالية، ولا يختلف الملك فاروق طاغيةً في شيء عن أجداده الطغاة، من الباشا المؤسّس حتّى جَدّه إسماعيل، ثم والده فؤاد. كان الفارق الوحيد أنّه طاغيةٌ من نوع مختلف عن أجداده، يخلو من أيّ موهبة أو حنكة أو حزم أو استعداد فطري أو مكتسب لإدارة بلد مهمّ، والتعامل مع إمبراطورية جبّارة، وفهم تحوّلات عاصفة. لكن، من مفارقات التاريخ العجيبة أنّ هذه

> عشرون سنة مرهقة (1955 ـ 1975) كانت لحظة صعود تاريخية لمصر ذاتياً وإقليمها وعالمياً

> يرى المصريون في الخمسين سنة الماضية من تاريخ مصر حقبةَ انسحابٍ تدريجي من الدور والرسالة والتاريخ

> دخل الجيش المصري حرب فلسطين بقرارٍ غير مدروس فكانت هزيمته هزيمةً للمشروع شبه الليبرالي شبه الديمقراطي

الخمسين سنة، أي النصف الأول من القرن العشرين، تظلّ أزهى عصور مصر الحديثة، مثل النصف الأول من القرن التاسع عشر، عصر محمد علي باشا، الذي وحّد مركز السلطة، أنهى تعدّد مراكز السلطة بين فرق المماليك، كان من هذه الزاوية فرعوناً عظيماً، قدّم مصر لزمانها وعصرها بعد أن انتزعها من فوضى القرن الثامن عشر، ثمّ رسم لها بوصلتها التي ينبغي أن تكون، وهي السباق مع أوروبا بأدوات أوروبا، طاغية مستنير لم يتسامح في شأن يخصّ مركزية السلطة وقوة الدولة، لم يتسامح مع طرف محلّي كما لم يتسامح مع طرف أجنبي. كائن سياسي عبقري بالغريزة سجّل اسمه بين عظماء التاريخ في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وحّد مصر، ثمّ وظّف إمكاناتها وقدراتها في تأسيس إمبراطورية مساحتها عشرة أضعاف مساحة مصر ذاتها. وبقدر ما كانت مصر عظيمةً في النصف الأول من القرن التاسع عشر، انقلبت العظمة إلى نقيضها تحت حكم خلفائه من سلالته وذرّيته، حتّى فقدت إرادتها، ثمّ حرّيتها، ثمّ صارت مُجرَّد مستعمرةٍ أوروبيةٍ القرار فيها للمحتلّ وليس خلفاء الباشا فيها غير أدوات لا تملك من أمرها، ولا من أمر مناصبها، ولا من أمر البلد الذي تحكمه، قليلاً ولا كثيراً.

كذلك الحال في القرن العشرين، مفارقات عجيبة وتناقضات غريبة. النصف الأول من القرن العشرين هو الأزهى والأبهى من النصف الثاني من ذاك القرن. حدث ذلك رغم أنّ مصر عانت في النصف الأول وحشية الاحتلال، وتسخير مواردها لصالح الاحتلال في الحربين العالميتَين الأولى والثانية. رغم ذلك، كانت استجابة المصريين لتحدّيات الاحتلال ووحشيته وحروبه مبهرةً، فأسّسوا الأحزاب والنقابات والجامعات والمسرح والرواية والترجمة، واستوعبوا علوم الغرب، وحقّقوا وأعادوا نشر تراث العروبة والإسلام وأنجزوا ثورةً عظيمة 1919، ثمّ شيّدوا دستوراً، ثمّ تطلعوا إلى بناء ديمقراطية برلمانية حقيقية، بدأوا منكفئين على الهُويّة الوطنية المصرية، ثمّ مع الخطرين الاستعماري والصهيوني انفتحوا على محيطهم العربي، وأعدّوا لبناء هُويّة عربية حديثة كانوا فيها نموذجي الأصالة والحداثة، من دون شعارات قومية عربية، ومن دون أيديولوجيا زاعقة. نجحت مصر في النصف الأول من القرن العشرين في أن تكون عاصمةً لأحرار العرب وقبلةً لمثقّفيهم وبيتاً لفنانيهم، احتضنت فكرة العمل العربي المشترك، وأسّست فكرة الاستقلال والتحرّر من الهيمنة الغربية بالمعنى الواسع للتحرّر، فرفضتْ فكرةَ الأحلاف الغربية، كما رفضتْ فكرةَ أن يتولّى الغرب مهمّات الدفاع عن الشرق الأوسط تحت مزاعم حمايته من الخطر الشيوعي.

ليست هذه هي الصورة كلّها. لم يكن النصف الأول من القرن العشرين (رغم أنّه الأزهى والأبهى) مثل النصف الأول من القرن التاسع عشر، لم يكن يخلو من إعاقات كبرى وعاهات مستديمة انتهت به (في خاتمته) إلى مأزق عميق عقيم صعب الخروج منه إلا بتغيير جذري، لم يكن قادراً على تطوير نفسه من داخله. دخل الجيش حرب فلسطين بقرارٍ غير مدروس ومن دون استعداد، فكانت هزيمته لا هزيمةً للعسكرية المصرية الملكية الحديثة فقط، في أول اختبار ميداني لها بعد 50 سنة من آخر حرب خاضها تحت قيادة الإنكليز في السودان عند خاتمة القرن التاسع عشر، بل كانت هزيمة الجيش في فلسطين هزيمةً كاملةً للمشروع شبه الليبرالي شبه الديمقراطي، وهو في الحقيقة طغياني فردي مطلق. كما كانت هزيمةً لمشروع الاستقلال الشكلي الذي أنجزته ثورة 1919، وتحته أنجزت ما سبقت الإشارة إليه كلّه من منجزات جعلت مصر واحةً حديثةً في الشرق الأوسط. هزيمة الجيش كشفت فساد الملك وخواء طبقة الحكم وفساد السياسة، وقد عجز هؤلاء جميعاً عن الاستجابة لهذا التحدّي العاصف. فجاءت الاستجابة من داخل الجيش ذاته، فعصف بالملك، وأسقط المَلَكية، وأنهى (إلى الأبد) حكم السلالة العلوية، ونسف الطبقة القديمة، وأسّس الجمهورية، وأعاد حرث المجتمع ذاته وهيكلته رأساً وعقباً، وحصد ثمرات الاستقلال سهلة جنيةً دنيةً ناضجة ميسورة، حصدها بعد أن كافحت لأجلها الأجيال من المصريين على مدى سبعة عقود، حصدها في لحظة كان الاستعمار ذاته في لحظة غروب تام، كان الإنكليز قد خرجوا من الهند التي بسبب مصلحتهم فيها احتُلّت ثمّ استُعمرت مصر، ولم يعد لهم ضرورة للبقاء في مصر بعد خروجهم من الهند درّة التاج البريطاني. في مفاوضاتهم مع رجل الدولة الواقعي إسماعيل صدقي 1946 كان الإنكليز قد اتفقوا على الجلاء عن مصر في موعد أقصاه 1949، لكن حزازات اللعبة الحزبية أفسدت الاتفاق، فكان سهلاً على الحكّام الجدد (الضبّاط الأحرار) التوصّل إلى اتفاق الجلاء 1954 تقريباً بمثل شروط مشروع الاتفاق، الذي كان قد توصّل إليه صدقي مع الانكليز 1946. كان الإنكليز ومعهم الأميركان قد فقدوا الثقة في النظام الملكي وفي الطبقة القديمة، فلم يعترضوا سبيل الضبّاط الأحرار، بل وفّروا لهم سبل التيسير في أيّامهم الأولى، كان عشم الإنكليز والأميركيين أن يوافق الضبّاط على ما لم توافق عليه الطبقة السياسية القديمة، وهو سلام مع الدولة اليهودية الوليدة، والدخول في الأحلاف الغربية للدفاع عن الشرق الأوسط ضدّ الخطر الشيوعي، وهو العشم الذي خاب أمله، فتجدّد الصراع بين الغرب والضبّاط الأحرار بأشدّ ممّا كان في عهد الطبقة الأرستقراطية القديمة.

من عدوان إسرائيل على غزّة 1955، حتّى اتفاق فضّ الاشتباك الثاني 1975، عشرون عاماً عاصفةً، حارب المصريون عسكرياً وسياسياً وأيديولوجياً، حاربوا في الداخل والخارج، حاربوا الدولة اليهودية، كما حاربوا الاستعمار، وحاربوا الرجعيات العربية والشرق أوسطية. كانت عشرين عاماً مرهقة، لكنّها كانت لحظة صعود تاريخية لمصر في ذاتها وفي إقليمها وفي العالم.

لم يحارب المصريون على مدى أكثر من نصف قرن أو يزيد من 1973 - 2024، لا حرب، لا احتلال، لا استعمار، لا إرهاق تاريخي من أيّ نوع، ولا اضطلاع برسالة خارج حدودها ولا داخل ذاتها من أيّ نوع. أضف إلى ذلك ما تدفّق إليها من عوائد المصريين العاملين في الخارج، الذين انتشروا في أركان المعمورة منذ أن وضعت الحرب أوزارها في خريف 1973، فضلاً عمّا حظيت به من مِنَح ومعونات ومساعدات دولية لا حدود لها. رغم ذلك كلّه، فإنّ آخر خمسين سنة من تاريخ مصر هي الأسوأ من وجهة نظر المصريين، يرونها حقبة انسحاب تدريجي من الدور والرسالة والتاريخ، وهو ما انتهى ببلدهم وبهم إلى نوع من اضمحلال حضاري كامل وشامل، فباتوا ينظرون بحنين جارف، قليله صواب وكثيره زائف، إلى أحقاب تاريخية سابقة بما فيها عهود الاستعمار. ويبقى السؤال، لماذا وصلت مصر في الخمسين سنة الماضية إلى ما وصلت إليه؟

(كاتب مصري)

ماذا قدّم الحليف الروسي للدولة السورية؟

سوسن جميل حسن

ضربة إسرائيلية أخرى في الساحل السوري (في اللاذقية) فجر الخميس الماضي، في منطقة لا تبعد إلّا كيلومترات معدودة من قاعدة حميميم الروسية، بما تحتويه من أسلحة وطيران حربي ومُسيَّرات ومضادّات حربية وعتاد، نفّذتها إسرائيل على مستودع للذخيرة، كما أعلن المرصد السوري لحقوق الإنسان، بينما أعلن إعلام النظام أنّ الدفاعات الجوّية السورية تصدّت لأهداف معادية في أجواء اللاذقية، مشيراً إلى أنّ العدوان الإسرائيلي أسفر عن اندلاع حرائق عند مدخل المدينة الساحلية، في الوقت الذي يتحدّث فيه سكّان اللاذقية عن أنّ الانفجارات استمرّت فترةً طويلةً، وأنّ شظايا تطايرت مسافات بعيدة نسبياً عن موقع التفجير، ما يدلّل على وجود ذخائر تفجّرت على التوالي.

قبلها، كانت هناك ضربات جوية مجهولة المصدر استهدفت مستودعاً للذخيرة بالقرب من مدينة جبلة في ريف اللاذقية (3 أكتوبر/ تشرين الأول الجاري)، وأخرى منذ ثلاث سنوات (28 ديسمبر/ كانون الأول 2021)، حين استهدف قصف جوي إسرائيلي ساحة الحاويات في مرفأ اللاذقية، في ثاني استهداف من نوعه للمرفق الحيوي خلال شهر واحد. هذه أمثلة عن الضربات المتكرّرة الإسرائيلية منذ العام 2011، إذ شنّ الجيش الإسرائيلي مئات الضربات في هذا البلد استهدفت بشكل رئيس مواقعَ الجيش السوري ومقاتلين مدعومين من إيران، بما في ذلك مواقع حزب الله، ولم تُستثنَ منها المناطق التي تُعدُّ تحت الحماية الروسية.

ونادراً ما تُعلّق السلطات الإسرائيلية على ضربات بعينها في سورية، لكنّها أكّدت مراراً أنّها لن تسمح لإيران بتعزيز وجودها هناك، وصار الوجود الإيراني وتغلغله في سورية سبباً للاعتداء الإسرائيلي، وحصد أرواح مدنيين كثيرين، آخرها الضربة التي نفّذتها في حيّ المزّة بدعوى وجود شخصية إيرانية في المبنى المُستهدَف. ليس هذا ما تريد المقالة طرحه، على الرغم من أهمّيته في اللحظة الراهنة وفي مستقبل سورية القريب، الذي لا يمكن فصله عمّا يجري في المنطقة، وتمدّد الحرب الإسرائيلية بدعوى القضاء على أذرع إيران في المنطقة، لكنّ السؤال الذي بات لا يبارح السوريين، خاصّة بعد مرور 14 عاماً على أزمتهم، والواقع الذي وصلت إليه بلادهم من تقسيم واحتلالات، وانهيار حياتهم من جميع النواحي، حتّى أصبح نحو 90% منهم تحت خطّ الفقر... هو: ما الذي قدّمته روسيا للشعب السوري، وهي الداعم الأكبر للنظام في سنواته السابقة؟ بعد مرور تسع سنوات على التدخّل الروسي في سورية، لم تكن النتائج السياسية والاقتصادية على قدر التوقعات، ولم ينل الشعب السوري، بمعزل عن النظام الحاكم، أيّ دعم في ظلّ تنامي أزمته الاقتصادية والمعيشية المتردّية بتسارع مخيف. الشعب السوري يعاني من شحّ المحروقات، وعدم القدرة على شرائها حين توافرها، فقد ارتفعت أسعارها ارتفاعاً لا يمكن معه الحصول عليها، في ظلّ تدنّي الدخل إلى ما دون العشرين دولاراً في الشهر، فماذا قدّمت روسيا بالنسبة إلى هذه الأزمة، وهي بلد النفط والغاز؟

الشعب السوري جائع حتّى رغيف الخبز، ومناطق زراعة القمح في سورية لم تعد تحت سيطرة النظام، وروسيا بلد القمح، بل وضعت حربها في أوكرانيا العالم كلّه، خاصّة البلدان المستهلكة للدقيق والخبز العنصر الغذائي الأكثر أهمّيةً لديها في ظلّ عدم قدرتها على الرفاهية الغذائية، في حالة هلع بسبب احتمالية عدم الحصول عليه، فكم رغيف خبز أو كيس دقيق قدّمت روسيا للشعب السوري، بل حتّى إنّها لم تستقبل لاجئين هاربين من الحرب التي كانت فيها طرفاً رئيساً في القصف والتهجير؟

في الواقع هي لم تقدّم شيئاً للشعب، بل ساهمت في تهجير عدد كبير منه، إنّما قدّمت للنظام، باعتباره بالنسبة إليها ضامنَ سياستها التي تديرها في المنطقة، ولقد شكّلت الحرب السورية ركيزةً حيويةً في إعادة روسيا قوّةً في منطقة الشرق الأوسط، فبلغ عدد مواقعها العسكرية في سورية 105 مواقع، حتّى منتصف عام 2023، منها 20 قاعدة عسكرية و85 نقطة عسكرية (لا تشمل الحواجز والثكنات والدوريات العسكرية) كما تقول التقارير، فكيف يمرّ هذا من دون مقابل؟ ... هذا ما يدور في أذهان الشعب، حتّى لو كانت الصحوة متأخّرة، أو ربّما هي مُجرَّد الجرأة على السؤال الذي كان مضمراً، إنّما بزوغ الأسئلة يمكن أن يفتح في الذهن آفاقاً أخرى للتفكير في الغد، والتفكير خارج السردية التي قُدِّمت إلى السوريين بأنّ روسيا جاءت لتدعم الحكومة السورية في القضاء على الإرهاب ومواجهة المؤامرة الكونية، كغيرها من الأطراف التي تدخّلت في الحرب السورية تحت هذه الذريعة، وكلّ طرف له «إرهابٌ» يحاربه.

لو كان للشعوب أن تختار مع من تتحالف، هل ستتحالف مع طرف خارجي لا تهمّه حياة الشعب ولا مصلحته ولا سيادة دولته؟ هل كانت ستتحالف مع أطراف أدارت ألعابها السياسية وصاغت اتفاقياتها ومعاهداتها على حساب الشعب من دون أيّ حدّ من الاكتراث بمصالحه؟ ... حتّى اتفاقياتها (روسيا) التي أبرمتها مع تركيا بدعوى تخفيض التصعيد في مناطق الشمال، لم ينجم عنها غير تعزيز الوجود التركي، في الوقت الذي ما زالت إلى اليوم ترسل طائراتها من قواعدها في الساحل لقصف بعض المناطق في ريفَي إدلب أو حلب.

تتعرّض سورية للقصف المستمرّ والضربات الإسرائيلية، التي لم توفّر المرافق الحيوية، بينما روسيا تقف صامتةً، وكأنّها غير معنية أو غير موجودة، بينما هي موجودة بكثافة، وما يدور في سورية ليس بمعزل عن صراعاتها مع أميركا والغرب. فأيّ حليف يمكن أن ينأى بنفسه عن أكثر قضايا ومشكلات شعب الدولة التي تتحالف معه أهمّيةً؟ ... ها هي إسرائيل، المدلّلة من قبل أميركا وحلفائها الغربيين، إسرائيل التي ما زالت تتلقّى الدعم منذ تأسيسها إلى اليوم، حتّى صارت في مصاف الدول الكُبرى من ناحية التقدّم والاقتصاد والتكنولوجيا، ومن بين 14 دولة هي الأولى في العالم من ناحية دخل الفرد ورفاهيته، ها هي إسرائيل تلقى الدعم كلّه في حروبها المدمّرة، التي ترقى معاركها إلى الإبادة الجماعية، فلا يجوع شعبها، ولا ينام المهجّرون من بلداتهم في الشوارع، ولا يعانون خطر الصواريخ التي تهدم أبنيةً بكاملها فوق رؤوس ساكنيها، ولا تنقص أطفالها الرعاية اللازمة، ولا تتعطّل العملية التعليمية.

> تتعرّض سورية للقصف المستمرّ والضربات الإسرائيلية، التي لم توفّر المرافق الحيوية، بينما روسيا تقف صامتةً، وكأنّها غير معنية أو غير موجودة

> شنّ الجيش الإسرائيلي مئات الضربات استهدفت بشكل رئيس مواقعَ الجيش السوري ومقاتلين مدعومين من إيران، ومواقع حزب الله، ولم تُستثنَ منها مناطق تُعدُّ تحت الحماية الروسية

هذا حديث لا يدعو إلى التحالف مع أميركا على حساب قضايا المنطقة، وأهمّها القضية الفلسطينية، لكنّه قرينة تأتي إلى البال أمام الواقع المأساوي الذي يعيشه الشعب السوري، بعد تسعة أعوام من التحالف مع دولة استثمرته في ترسيخ نفوذها وحماية مصالحها ولعبها الدولي من دون أن تقدم شيئاً، إلّا مزيداً من الدعم للنظام من دون أن تساهم في خلق جوّ ملائم لعملية سياسية تُخرج هذا الشعب من مأزقه الحياتية القاتلة، وتساعده في مسك زمام المبادرة في ما يتعلّق باستعادة وطنه وبنائه من جديد.

لكن كيف لهذه الشعوب أن تختار حلفاءها، وهي لم تستطع أن تختار حكوماتها وأنظمتها السياسية؟ ... لقد أدخلتها هذه الأنظمة في حالة استنقاع مديدة، جعلت منها شعوباً متهتّكة النسيج الاجتماعي، طفت باكراً مشكلاتها على السطح، وتمكّنت منها مع مرور عقد ونصف العقد من القتل والتشريد والحروب والتقسيم، شعوباً امتثالية لا تعرف غير الانصياع لما يُملى عليها، الانصياع لأيديولوجيات أو عقائد دينية، ما جعلها تحترق طيلة هذه السنوات. طرح الأسئلة ظاهرة مُستجدَّة إيجابية، لكنّها لا تلغي السؤال: هل ستُعرف هذه الشعوب اختيار حلفائها فيما لو مُنِحَت حرّية الاختيار؟

(روائية سورية في برلين)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads